أهمّ ما تطرحه اللّسانيّات التّمهيديّة

The most important proposition of introductory linguistics

أم هاني حبيطة habita.omhani@univ-ghardaia.dz

جامعة غرداية، مخبر التّراث الثّقافي واللغويّ والأدبيّ بالجنوب الجزائريّ

محمد مدور meddour.medj@gmail.com

جامعة غرداية، مخبر التّراث الثّقافي واللّغويّ والأدبيّ بالجنوب الجزائريّ

تاريخ الاستلام: 2020/12/01 تاريخ القبول: 2020/12/04 تاريخ النشر: 2021/01/01

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية للبحث في شيء من الجدل بعد ظل تصاعد أصوات الخلط بين المفاهيم والمبادئ التي جاءت بها اللسانيات الغربية، والتي شكلت عائقا أمام الطلاب والباحثين اتجاه هذا الوافد الجديد، مما اضطر بعض المجتهدين إلى تبسيطها وتيسيرها وتكييفها حسب المستويات باستعمال مختلف الوسائل الإفهامية التواصلية، فكيف طرحت اللسانيات التمهيديّة ذلك؟ وكيف كان أثرها؟ وهل يمكن الاتفاق على سبل من شأنها أن تبسط هذه المفاهيم؟

كلمات مفتاحية: أهمّ ؛ اللسانيات ؛ التمهيدية ؛ التيسير ؛ الإشكالات

Abstract:

This research paper seeks to discuss some of the controversy after the escalation of the voices of confusion between concepts and principles that Western linguistics brought, which constituted an obstacle for students and researchers towards this newcomer, which forced some diligent people to simplify, facilitate and adapt them according to levels using various communicative means, How did introductory linguistics explain this? How was the effect? Is it possible to agree on ways to simplify these concepts?

Keywords: most important; linguistics; introductory; facilitation; problems.

1. مقدمة:

ظهرت اللسانيات في العالم المتقدّم في بداية القرن العشرين، حاملة نظرة جديدة لغة، وقضايا التّواصل اللّساني المتعدّدة، معبّرة في جوهرها عن قيم الحداثة والتّجديد الفكري، وكان لهذا البُعد الحضاريّ أثره في تطوّر الدّراسات اللّغويّة العربيّة، من حيث التّعديل في الأسئلة البحثيّة المطروحة، ومناهج فحص الظّواهر، وفي هذا البحث محاولة للكشف عن جوانب هذه الحداثة اللّسانيّة في الفكر العربيّ الحديث من خلال وصف وتحليل نماذج لسانية تمثّلها الدّراسات اللّغويّة بمختلف روافدها وتخصّصاتها الصّوتية والصرفيّة والتّركيبية والدلالية والاجتماعيّة والتّطبيقيّة، قصد إبراز ملامح التّطوّر، وكان هذا الظّهورعقدة لبعض الدّارسين الذين يستصعبون المفاهيم والمبادئ التي جاءت بها هذه النّظريات فكان لزاما على الباحثين أن يُبسّطوها في قالب يسمح لكلّ الدّارسين هضم هذه المّادة العلميّة، ومن هنا نطرح الإشكال الآتي:

ترى ما هي اللسانيات التمهيدية ومبادئها وقضاياها ؟

للإجابة على ذلك نقترح الخطة التالية :

1-مفهوم اللسانيات التمهيدية و خصائصها.

1-1-تعريف اللسانيات و اللسانيات التمهيدية.

1-2-نطاق اللسانية التمهيدية وقضاياها.

2- اللسانيـات التمهيدية و اشكالاتها الموضوعية و المنهجية.

2-1-خصـائص اللسانيـات.

2-2-كتابة اللسانية التمهيدية و اشكالاتها الموضوعية و المنهجية.

2. مفهوم اللسانيات التمهيدية و خصائصها:

2-1-تعريف اللسانيات و اللسانيات التمهيدية :

تعتبر اللسانيات [1] من العلوم الحديثة التي لا تزال في أوج تطورها ، وقد تخلصت ببطء من التعاليم النحوية ومن بحوث الفيلولوجيا ، والتفكير الفلسفي حول أسس المعرفة ، وحول العلاقات بين الفكر ووسائل التعبير عنه وهي من الناحية اللغوية مصطلح مركب من : لسان / يات فاللسان هو « العنصر المعروف داخل الفم ، بين الفكين ، وهو أداة رئيسية في آلة النطق وتأليف مخارج الحروف » [2].

أما اللسان فيعني اللغة « يقال : كل قوم لسن ، أي لغة » [3]، فإذا كان اللسان كذلك ، ويات لاحقة تعني علم فإن اللسانيات علم يعنى بدراسة الظواهر اللغوية .

وأما من الناحية الاصطلاحية ، فقد عرف أندريه مارتينه (André Martinet) اللسانيات بقـوله : « اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة الإنسانية ، يقال لدراسة بأنها دراسة علمية عندما تقوم على مراقبة الوقائع وتمتنع عن اختيار من بين هذه الوقائع باسم بعض المبادئ الجمالية أو الأخلاقية » . ويحدد فردينان دي سوسير مادة اللسانيات قائلا : « إن مادة اللسانيات تشمل كل مظاهر اللسان البشري سواء أتعلق الأمر بالشعوب البدائية أم الحضارية ، أو بالعصور القديمة أو بعصور الانحطاط »

ما يلاحظ من خلال هذين التعريفين أنه أول ما يطلب من الدراسة اللغوية أن تكون موضوعية وليست انطباعية ذاتية ، ذلك أن اللغة التي يدرسها علم اللغة الحديث (اللسانيات) ليست لغة معينة من اللغات مثل : اللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية ... « و إنما هي اللغة التي تتحقق في أشكال لغات كثيرة ولهجات متعددة وصور مختلفة من صور الكلام الإنساني ... » [4]

يتشكل موضوع اللسانيات التمهيدية أو التبسيطية مما تقدمه النظريات اللسانية الحديثة من مبادئ ومناهج جديدة في دراسة اللغة البشرية بصفة عامة. وتعتمد هذه الكتابة المنهج التعليمي القائم على التوضيح والتبيان والشرح وما يتطلبه كل ذلك من وسائل

مساعدة كالأمثلة والرسوم البيانية. وتروم هذه الكتابة تقديم اللسانيات ومفاهيمها النظرية والمنهجية بشكل مبسط قصد تيسير المعرفة اللسانية للقارئ العربي سواء كان يلج عالم التخصص أو قارئا ينشد التسلح باللسانيات للاستفادة منها في مجالات فكرية أخرى من فكر عربي أو نقد أدبي أو تاريخ أو ما شابه ذلك [5]

يتضح من خلال هذا التعريف أن موضوع الكتابة اللسانية التمهيدية هو النظريات اللسانية: مبادؤها ، ومناهجها، واتجاهاتها وأعلامها. أما غايتها فهي تبسيط المعرفة اللسانية للقارئ المبتدئ . فهل نجحت الكتابة اللسانية التمهيدية في بلوغ هذا المسعى؟

تشكل الغاية التعليمية الهدف الذي يروم تحقيقه هذا الصنف من اللسانيات، لهذا من المفروض أن يكون كل مؤلف من المؤلفات اللسانية التمهيدية بنية خطابية متكاملة علميا و منهجيا، بدءا بعنوان الكتاب ، مرورا بمقدمته ، و عناوين أقسامه ، وأبوابه ، و فصوله ، وصولا إلى خاتمته. و سنحاول بتتبعنا لبعض المؤلفات اللسانية التمهيدية أن نكشف عن إشاراتها الخارجية و الداخلية ، و ما تحمله من وظائف دلالية و تداولية معتمدين ، في ذلك ، منطلقا في التحليل يركز على العتبات (seuils) أساسا قد يسعفنا في إرساء قواعد جديدة للكشف عن تجليات التلقي . و سنركز، بشكل خاص ، على العناوين والخطاب المقدماتي .

2-2-اللسانية التمهيدية ومبادئها وقضاياها:

لقد أولت المناهج الحديثة و المعاصرة ، في نظريات القراءة، و سيميائيات النص، و جماليات التلقي، أهمية كبيرة لعنوان النص و مقدمته، و اعتبرتهما مكونين أساسين، و دالين ؛ فقد جعلهما جيرار جينيت (Gérard Génétte) من النصوص الموازية Paratextes الدالة التي ترافق النصوص الرئيسة [6] و التي لا يمكن الاستغناء أو التغاضي عنها .و تكمن أهمية هذين المكونين (العنوان و المقدمة) في كونهما أول المؤشرات التي تدخل في حوار مع المتلقي ، فتثير

فيه نوعا من الإغراء، و الفضول العلمي و المعرفي، و إليهما توكل مهمة نجاح الكتاب في إثارة استجابة القارئ بالإقبال عليه و تداوله ، أو النفور منه و استهجانه.

عناوين الكتب :

تنبثق أهمية العنوان ، بشكل عام ، من كونه مكونا نصيا لا يقل أهمية عن المكونات النصية الأخرى، فالعنوان يشكل سلطة النص وواجهته الإعلامية، و هذه السلطة تمارس على المتلقي » إكراها أدبيا ، كما أنه [أي العنوان] الجزء الدال من النص« [7] و هذا ما يؤهله » للكشف عن طبيعة النص و المساهمة في فك غموضه« [8] بل يعين مجموع النص و يظهر معناه، و هذا يعني أن العنوان هو مرآة النسيج النصي، وهو الدافع للقراءة، وهو الشرك الذي ينصب لاقتناص المتلقي،

و من ثمة فإن الأهمية التي يحظى بها العنوان نابعة من اعتباره مفتاحا في التعامل مع النص في بعديه الدلالي و الرمزي ، بحيث لا يمكن لأي قارئ أن يلج عوالم النص أو الكتاب، و تفكيك بنياته التركيبية و الدلالية ، و استكشاف مدلولاته و مقاصدها التداولية، دون امتلاك المفتاح ، أعني العنوان .

العنوان إذن هو الثريا التي تضيء فضاء النص، و تساعد على استكشاف أغواره، فيكون العنوان بكل ذلك ضرورة كتابية تساعد على اقتحام عوالم النص؛ لأن المتلقي » يدخل إلى " العمل " من بوابة " العنوان " متأولا له، و موظفا خلفيته المعرفية في استنطاق دواله الفقيرة عددا و قواعد تركيب و سياقا، و كثيرا ما كانت دلالية العمل هي ناتج تأويل عنوانه، أو يمكن اعتبارها كذلك دون إطلاق« [9] كما يأخذ العنوان أهميته من كونه علامة كاملة تحمل دالا و مدلولا.

ويمكن ذكر بعض عناوين الكتب في اللسانيات التمهيدية:

علم اللغة،علي عبد الواحد وافي.

علم اللغة(مقدمة للقارئ العربي)، محمود السعران.

علم اللغة العام،توفيق محمد شاهين.

في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين.

اللسانيات التوليدية والتحويلية، عادل فاخوري.

الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا.

المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه، رمضان عبد التواب.

مدخل في اللسانيات، صالح الكشو.

مدخل إلى علم اللغة، محمد فهمي حجازي.

مدخل إلى علم اللغة، محمد علي الخولي.

مدخل للسانيات سوسير، مبارك حنون.

بنية العناوين التركيبية :

لا تخضع العناوين لبنية تركيبية متماثلة إلا في حالات نادرة ، و تتوزع بين الطول و القصر و التوسط ، و تتألف من كلمة واحدة أو كلمتين أو أكثر، و قد تكون عنوانا رئيسا فقط، و قد تجمع بين عنوان رئيس و عنوان فرع، و قد تكون غير هذا . و يقسم جنيت (Génétte) العنوان إلى :« 1. العنوان (الأساس أو الرئيس) ، 2.العنوان الفرعي3.التعيين الجنسي [10]

هذه هي أهم خصوصيات العنوان كما تحددها الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة.

3. اللسانيــات التمهيدية و اشكالاتها الموضوعية و المنهجية :

1.3 خصائص اللسانيات:

لا جدال في أن اللسانيات من العلوم الحديثة ، وأن البحث في اللغة في أوربا و أمريكا قبل القرن التاسع عشر كان بحثا ذاتيا (Subjective) (أو غير موضوعي) ، كما كان بحثا يقوم على التخمين والتأمل العقلي وغير منهجي . ومن ثم فعلم اللغة لم يصل إلى هذا التطور – الذي تشهده اليوم – إلا عبر معارضته الواعية لخصائص المناهج التقليدية في الدراسات اللغوية خلال القرون الماضية . وهذا – تحديدا – ما جعل اللسانيات تختلف عن علوم اللغة عند الغربيين قبل القرن التاسع عشر في الكثير من الخصائص – ويرى جون ليونز (J.Lyons) [11] أن أهم هذه الخصائص ما يلي :

1- يتمتع منهج علم اللغة عن بقية المناهج العلمية الأخرى بالاستقلال . وهذه الميزة نتيجة مباشرة للميزة العلمية التي تتمتع بها اللسانيات عامة ، ذلك أن النحو التقليدي – كأي شيء آخر في الثقافة الغربية – يتصل في كثير من جوانبه ومنذ بدايته بالفلسفة والنقد الأدبي منذ بدء ظهوره في القرن الخامس قبل الميلاد ، بل كان خاضعا لهما في كثير من الأحيان . وقد ساهم هذان الحقلان في تكوين المواقف والأسس التي تبناها العلماء في دراسة اللغة طيلة قرون عديدة .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه المواقف والأسس لا تزال حتى الآن واسعة الانتشار وراسخة في ثقافتنا لدرجة أنها تعتبر من المسلمات ، وعندما يطالب الباحث اللساني باستقلال موضوعه فإنما يطلب السماح له بتبني نظرة جديدة موضوعية هي اللغة دون التزام مسبق بالأفكار التقليدية ودون أن يتبنى وجهات نظر الفلاسفة أو النقاد أو من يمثلون العلوم الأخرى ، ولكن هذا لا يعني أنه لا توجد – أ ينبغي ألا توجد – صلة

بين علم اللغة والعلوم الأخرى التي تهتم باللغة ، إذ الحقيقة أنه حديث هذا التقارب نتيجة التطوير المستقل للسانيات .

2- الاهتمام بأسبقية اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة ، على حين أن العلوم اللغوية التقليدية فعلت بالعكس فاللسانيين المحدثون ينطلقون من مسلمة مفادها أن الكلام يأتي في المرتبة الأولى ثم تليه الكتابة أضف إلى ذلك أن اللغات المعروفة لم تكن سوى كلام منطوق ، بل أكثر من هذا نجد أن الأطفال يتقنون الكلام قبل تعلمهم الكتابة .

3- تهتم اللسانيات باللهجات (اللغات العامية غير المعيارية) ولا تفضل الفصحى (اللغة المعيارية) على غيرها على النحو الذي كان سائدا من قبل ، فقد انحصر اهتمام النحويين التقليديين في دراسة اللغة الأدبية الكلاسيكية وكانوا يحتقرون اللغة العامية لاعتقادهم أنها غير صحيحة ، سواء في الكلام أو الكتابة ، وغاب عن أذهانهم أن ما يسمونه لغة فصحي هو من وجهة النظر التاريخية ليس إلا لهجة محلية أو اجتماعية معنية اكتسبت مكانة مرموقة ثم ارتبطت بالسياسة والثقافة والأدب ، فالفرق بين اللغة واللهجة غالبا ما يبني على أسس سياسية ، وحتى اليوم يميل العديد من الناس إلى الاعتقاد بأن اللغة الأدبية التي تدرس في المدارس هي التي تشكل موضوع الوصف العلمي ، في حين أن اللهجات على اختلافها وتعددها لا تقل أهميتها عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوي وهي أيضا جديرة بالبحث والدراسة .

4- تسعى اللسانيات إلى بناء نظرية لسانية لها صفة العموم ، إذا يمكن على أساسها دراسة جميع اللغات الإنسانية ووصفها ، ذلك أن النحو التقليدي قد قام وطور وفق الأسس اللاتينية واليونانية وسخر في وصف ودراسة عدد كبير من اللغات الأخرى . ولكن ثمة لغات عديدة تختلف اختلافا شاسعا في بعض عناصرها على الأقل عن بنية اللاتينية واليونانية و اللغات المألوفة الأخرى في أوربا وأسيا . ولهذا فإن من أهداف

اللسانيات الحديثة بناء نظرية لسانية أكثر من التقليدية بحيث تلاءم وصف جميع اللغات الإنسانية دون انحياز إلى تلك اللغات التي تشبه في تركيبها النحوي اليونانية واللاتينية .[12]

5- لا تقيم اللسانيات وزنا إلى كل من يعتقد بوجود فوارق جوهرية بين اللغات المتحضرة ، واللغات البدائية لأنها جميعا جديرة بالدرس دونما تمييز أو انحياز مسبق . ذلك أن مفردات كل لغة تعكس دون شك مرافق الحياة لدى المجتمع الذي ينطق بها وهكذا لا يمكن الحكم على أية لغة بأنها فقيرة أو غنية بالمقارنة مع أي لغة أخرى بالمعنى المطلق ... أما الفروق النحوية التي نجدها بين اللغات المنتشرة في أنحاء العالم فلا يمكن ربطها بالتطور الحضاري للشعوب التي تتكلم بها .

6- تهتم اللسانيات بدراسة اللغة كاملة وعلى صعيد واحد ، ضمن تسلسل متدرج من الأصوات إلى الدلالة مرورا بالجوانب الصرفية والنحوية .[13]

2.3 الكتابة اللسانية التمهيدية و اشكالاتها الموضوعية و المنهجية :

تلتزم الكتابة اللسانية التمهيدية بالجانب التعليمي التبسيطي، و بإعطاء القارئ المبتدئ المفاتيح التي تمكنه من حل كل مستغلقات اللسانيات ، و تمكينه من مبادئها و توجهاتها ، و هذا ما تنطق به عناوينها و خطابها المقدماتي كما رأينا . غير أن ما يعبر عنه متن بعض هذه الكتابات يبقى ، في غالبيته ، مغايرا بل و مناقضا لتلك الأهداف المعلنة ، و هذا يخلق فجوة بين ما يحفز المتلقي على القراءة و بين ما يقرأه فعلا ، مما يشوش على أفق انتظاره و يخيبه ؛ حيث إن أغلب الكتب اللسانية التمهيدية لم تحرص على ضرورة انسجام عناوينها و خطابها المقدماتي مع متونها ، فجاءت أغلب المتون غير مشاكلة للمقدمات ، التي تجعل من كل ما تزخر به ، من آراء و أفكار و مشاريع نظرية ، وهمًا.

فيلفي القارئ نفسه غير مشدود إلى ما يقرأ و هذا يخيب أفق انتظاره ، و يوجه القراءة نحو أهداف غير معلنة فيتحول ذلك إلى إشكالات للتلقي .

بالنظر إلى التعريفات التي تقدمها الكتابة اللسانية التمهيدية نلاحظ وجود اختلاف واضح في تصورها لمستوى القارئ المبتدئ ، كما نجد اختلافا في منطلقاتها النظرية و المنهجية ، ويلاحظ بهذا الخصوص طغيان الاتجاه الوصفي على غيره من الاتجاهات الأخرى ، بحيث نكاد نعدم تعريفات للغة من وجهة نظر توليدية مثلا ، و لعل السبب في ذلك يرجع إلى المكانة التي حظيت بها اللسانيات الوصفية خلال فترة من الفترات ، فطال هذا التأثير مجالات البحث اللغوي ، كما طال مجالات أخرى ، (الأدب و الفلسفة و...) . كما يمكن أن يعزى ذلك إلى حداثة الاتجاهات اللسانية الأخرى في ثقافتنا ، و إن كان من غير المقبول اليوم أن نتحدث عن هذه الحداثة ما دامت اللسانيات التوليدية قد رسخت أقدامها، و إليها توكل مهمة قيادة البحث اللساني المعاصر.[14]

و يلاحظ من تتبعنا للكتابة اللسانية التمهيدية أن الاتجاه البنيوي لم يستأثر باهتمام المؤلفات ذات الصلة بعلم اللغة العام فقط، بل طال أيضا بعض القطاعات اللسانية الأخرى ، كعلم الدلالة؛ إذ إن بعض المؤلفات التي تروم تقريب هذا الاتجاه من القارئ العربي ، تكتفي بما يدخل في علم الدلالة البنيوي ، يظهر ذلك في مؤلف علم الدلالة لأحمد مختار عمر، الذي لم يسع صاحبه إلى تطويره وفق آخر مستجدات النظريات الدلالية ، رغم أن الكتاب طبع عدة مرات . و يعلل المؤلف أسباب ذلك بقوله : » القضايا المطروحة في علم الدلالة ليست مما يمكن الإلمام به ، أو عرضه في كتاب واحد ، و بخاصة منذ تداخلت مناهجه مع مناهج النحو، بعد مقالة Katz و Fodor الرائدة عام (1963)، التي قادت إلى دمج الفرعين داخل إطار القواعد التحويلية ، و توسعت اهتمامات هذا العلم لتشمل لتراكيب و تحليل الجمل ببيان علاقات كلماتها بعضها ببعض، و إظهار كيفية ارتباط الجمل منطقيا بالجمل الأخرى [15]

لقد انتبه المؤلف إلى هذا النقص ،غير أنه حاول تجاوزه بالالتزام بإصدار مؤلف مكمل لما جاء في كتابه ، يقول : » رأيت أن أركز ، في هذا الكتاب ، على الجانب الأول من الدراسة الدلالية ، و هو المعاني المعجمية ، مع بعض إشارات سريعة إلى الجانب الآخر حين يكون ذلك ضروريا ، مؤجلا المعالجة التفصيلية إلى كتاب مستقل ، أرجو أن أفرغ من مادته قريبا [16] و هو وعد مر عليه حين من الدهر [17] و مع ذلك لا نعرف إلى حدود اليوم مؤلفا في علم الدلالة يكمل هذا المؤلف ، و هذا يعني تحلل الكثير من المؤلفين من مسؤولياتهم تجاه القراء ، و ذلك لا يخرج عن عوائق التلقي .

الإشكال الموضوعي:

يلاحظ قارئ الكتابة اللسانية التمهيدية ارتباكا واضحا في تحديد موضوع الدرس اللساني تحديدا دقيقا ؛ فقد أشرنا آنفا إلى التحديد الذي يعطيه عبد الصبور شاهين لعلم اللغة و المواضيع التي تندرج تحته ، غير » أن ما أدرجه المؤلف تحت اسم"علم اللغة" و "علم اللغة العام " ، يحتاج إلى وقفة طويلة لإزالة ما تحمله مثل هذه التحديدات من غموض و خلط. هل الفيلولوجيا و علم اللهجات و أسماء الأعلام و أسماء البلدان و علم الاشتقاق التاريخي تندرج تحت مصطلح linguistique ؟ إنها علوم لغوية مساعدة للسانيات ، و لكنها ليست بأي حال من الأحوال من اللسانيات العامة ،و هذا – على الأقل – منذ أن اصبحت اللسانيات إطارا لغويا مستقلا عن غيره من المعارف اللغوية في بداية هذا القرن [18]

من المواضيع التي يناقشها المؤلف أيضا « النظريات المختلفة في أصل اللغة ، و الصراع اللغوي و اللغة المشتركة و مقياس الصواب و الخطأ في اللغة، و القرآن و العربية، و أزمة اللغة المعاصرة، و جذور الدعوة إلى العامية ، فهل كل هذه القضايا من علم اللغة فعلا ؟

و يحدد مؤلف آخر موضوع علم اللسانيات بأنه كل : أشكال اللغة و ألوانها وتغيراتها و تطوراتها و تركز اهتمامها على كل ما يرتبط بموهبة الكلام التي تميز الإنسان عمن سواه .هذه الموهبة التي تمكن الإنسان من نقل أفكاره باستخدامه أصواتا معينة . يحاول اللسانيون فهم هذه الموهبة المكتسبة و الطريقة التي وضع بها لغتهم . إنهم يريدون فهم القوانين التي تخضع لها ولادة اللغة و حياتها و موتها . و يهتم اللسانيون – إلى جانب اللغات الحية – باللغات الميتة التي لا تتكلم بها أية جماعة بشرية.[19]

الإشكال المنهجي :

رأينا أن بعض المؤلفات اللسانية التمهيدية تعمد بدافع التأصيل إلى المقارنة بين التراث اللغوي العربي، و مبادئ الدرس اللساني الحديث ، دون أن تأبه إلى ما يسببه ذلك من تعسف و إفراط في التأويل .

إن التأصيل الذي تتحدث عنه مثل هذه المقارنات يقوم على تجاهل الأصول الإبستيمولوجية لكل علم ، و التي يجب أن ترتكز عليها القراءة . فهل من المقبول أن نكلف القارئ المبتدئ عناء الدخول في مثل هذه المقارنات ، و نشحنه بمقاربات مبنية على تأويلات هدفها إثبات التقاطع بين خطابين مختلفين، بل متباعدين زمانا و مكانا و منطلقا و غاية ؟

إن مقارنة من هذا القبيل تخطئ هدفها لاعتبارين اثنين على الأقل :

* إما أن يكون متلقيها ملما بالتراث اللغوي، و في هذه الحال لن يجد داعيا للرجوع إلى اللسانيات أو تعميق معرفته بها، لأن هذا النوع من المقارنة يجعله يعتقد أن مبادئ اللسانيات هي ما حفظه و عرفه من مبادئ تراثه اللغوي، كما توحي بذلك هذه المقارنات .

* و إما أن يكون قارئا جاهلا بالتراث اللغوي فيجد في التطابق الوهمي الذي تثبته هذه الكتابات سببا كافيا لقطع كل أشكال الاتصال مع تراثه اللغوي ، لأن اللسانيات – كما

تقدم له – تكفيه هم الرجوع إلى المصنفات النحوية . و في كلتا الحالتين ، فإن الكاتب يخطئ الهدفين ، فلا هو أثبت مكانة التراث اللغوي و لا هو أثبت أهمية اللسانيات.

و يزيد الأمر استشكالا حين تقفز المقارنة على حدود الفهم و الإفهام و تروم أهدافا أخرى ؛ حيث يتحول الكتاب إلى عرض لمبادئ اللسانيات من أجل نبذها و تجاوزها، و تركيز و تأكيد سلطة القديم، و هذا ما يهدف إليه شاهين من وراء تأليفه لكتابه ، فهو يحاول أن يبين » كيف أن علماءنا الأجلاء القدامى – إبان نهضتهم – أولوا تلك الأبحاث اللغوية جهودا فائقة ، خدمة للغة الضاد، التي هي وعاء مقدساتنا ، و على أسس سليمة في جملتها ، و على قدر وسعهم و إمكاناتهم .وكيف أن أبحاث العلماء العرب القدامى كانت النبراس الذي أمد الغرب – حين نهضته حديثا – بما أوصله الغاية ، و ساعده على الرقي فإذا ما غض الطرف بعدئذ بعض علمائهم على ما صنع علماؤنا. فمرجعه جهل مبين ، أو حقد دفين [20] إن القارئ المبتدئ عندما يطالع مثل هذا النص سيترسخ في ذهنه، منذ الوهلة الأولى، وجود صراع و تناقض صارخين بين اللسانيات و التراث اللغوي العربي، و ما أكثر مثل هذه الإشارات في الكتب اللسانية التمهيدية التي تنحرف عن غايتها التعليمية لتدخل في أمور تفتح أفق انتظار المتلقي على جوانب من الصراع الوهمي بين اللسانيات و التراث اللغوي، و هذا ما يسئ إلى الفهم و التلقي بوجه عام .

في إطار الإشكال المنهجي دائما لاحظنا خلال حديثنا عن الوظيفة المرجعية للكتابة اللسانية التمهيدية الأهمية التي يكتسبها الإعلان عن مصادر الكتاب (و ما يلقاه من ثناء) ، غير أن التعامل مع المصادر و المراجع لا يتم دائما بطريقة علمية مضبوطة ؛ ذلك أن بعض اللسانيين يشيرون إلى مصادرهم و مراجعهم بطريقة مجملة سواء أكانت عربية أم غربية ، قديمة أم حديثة،و لا يكلفون أنفسهم عناء الإحالة على تلك المراجع و المصادر في متن الدراسة بالطريقة المعمول بها علميا ، لاحظنا ذلك عند غير واحد من مؤلفي الكتابة

التمهيدية . يقول توفيق محمد شاهين : استفدت في هذا الفصل، من عدة مراجع ، سأذكرها مجملة ، و قد لجأت إلى هذه الطريقة – هنا – بإغفال ذكر المرجع و الصفحة لكل اقتباس لأنها كثيرة أولا ، و متفقة أحيانا ثانيا ، و خشية تضم الحاشية و كثرة الأرقام و الأقواس ثالثا، بلا داع ، فليرجع إليها من شاء مزيدا من الفائدة [21] و الرأي عينه نجده عند عصام نور الدين الذي رأى أن » العزو إلى المصادر و المراجع لا يقدم في هذا البحث جديدا،. لكنه قد يرهق القارئ في هوامش هو بغنى عنها ، ما دمنا قد قدمنا له لائحة تكاد تكون كاملة بمصادر بحثنا ومراجعه، و يستطيع العودة إليها متى شاء. و لنا في ذلك أسوة حسنة ببعض كبار العلماء من عرب و أجانب [22]

فهل الإحالة على مراجع البحث و مصادره يرهق القارئ فعلا ؟ و هل من المعقول أن يسير على خطى العلماء الكبار و كتابه موجه لقارئ يصعب عليه قراءة كتاب تمهيدي ؟

و ما يعمق هذا الإشكال أكثر أن المصادر و المراجع التي يحيل عليها كل كتاب من الكتابين السابقين متنوعة ، و لا شك أن ما سيرهق القارئ هو التمييز في تلك الكتب بين آراء المؤلف و آراء القدماء و آراء المحدثين .

4. خاتمة:

إنّ اللسانيات علم حديث، وُلد على أنقاض العلوم اللغوية الكلاسكية المُتمثلة في فقه اللغة المقارن، والنحو المعتمد على المنطق الأرسطي، و القياس، و التأويل و التعليلات المجردة بعدما أحدث قطيعة معرفية ومنهجية مع هذه الدراسات، وقد كان صاحب هذه القطيعة العالم اللساني السويسري (فيردنان دي سوسور)، الذي دعا إلى ضرورة دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، باعتبارها ظاهرة من الظواهر الإنسانية، يحق لها كل الحق أن تدرس، وأن تقيم علما مستقلا بذاته، مرتكزا على جميع الأدوات الفكرية و الاكتشافات الحديثة، و التقنيات الدقيقة، بهدف بناء نحو كلي للسان البشري، يصف ويفسر

خصائص ومبادئ اشتغال اللغات الطبيعية بشكل عام وقد ساهمت جهود الباحثين في تبسيط هذه المفاهيم وبلورتها لتصبح في متناول طالب العلم مهما كان مُستواه.

5. قائمة الإحالات:

[1] ظهر هذا اللفظ أول ما ظهر في ألمانيا (linguistic) لكن لفظ Sprach wissensehaft. هو أقدم منه وأكثر استعمالا) ثم استعمل في فرنسا ابتداءا من 1826 وفي انجلترا ابتداءا من 1855 (ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، " اللسانيات " ص : 29)

[2] إميل يعقوب وميشال العاصي ، " المعجم المفصل في اللغة و الأدب " ، دار العلم الملايين ، (د – ط) ،بيروت – لبنان (د- ت- ن) ، ص : 1068 .

[3] ابن فارس ، " معجم مقاييس اللغة " ، تح : عبد السلام هارون ، مادة لسن ، بيروت – لبنان ، (د- ت- ن) .

[4] محمود السعران ، " علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي " ، ص :49.

[5] المرجع نفسه.

[6] مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية. جامعة الحسن الثاني عين الشق . كلية الآداب و العلوم الإنسانية . سلسلة رسائل، ص :92.

[7] G. Génétte ,Introduction à l'Architexte .éd. Seuil. Paris,1982 . p :9

[8] Ch. Grivel, Production de l'Intérêt Romanesque .éd. Mouton , 1973. p :166

[9] عبد الرحمان طنكول: خطاب الكتابة و كتابة الخطاب في رواية مجنون الألم . مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية .فاس . 1978 ،ص:135.

[10] محمد فكري الجزار: العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي .الهيئة العامة المصرية للكتاب.القاهرة. 1998، ص:19.

[11] ينظر جون ليونز ، " نظرية تشومسكي اللغوية " ، تر وتع : حلمي ، دار المعرفة الجامعية ، ط (02) ،مصر، ص: 39 وما بعدها .

[12] عبده الراجحي ، " علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية.

[13] عبده الراجحي ، " علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية " مرجع سابق.

[14] مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية مرجع سابق.

[15] أحمد مختار عمر: علم الدلالة .عالم الكتب . ط 4.

[16] نفسه،ص: 7

[17] نفسه، ص: 7

[18] مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية.

[19] عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام .

[20] توفيق محمد شاهين : علم اللغة العام دار الفكر اللبناني . 1992، ص101.

[21] عصام نور الدين : علم الأصوات اللغوية ، الفونيتيكا، ص: 11.

[22] علي عبد الواحد وافي : علم اللغة : مقدمة الطبعة الأولى.